

هذه شهرزاد قائمة منه غير بعيد، تنظر إليه نظرات فيها الحنان والمكر، وهي مغرقة في ضحك هادئ عذب يرتفع له صدرها وينخفض، ويُعْشِّي وجهها بغشاء من الجمال الرائع ليس إلى تصويره من سبيل، وهذا الملك ينظر إليها مسحورًا مبهورًا، وهي تضحك من ذهوله وحيرته، ولكنه ينهض خفيًا ويسعى سريعًا، حتى إذا بلغها أو كاد جثًا أمامها غاضًا بصره إلى الأرض رافعًا يديه إلى السماء كأنه المؤمن الذي يتقرب إلى التمثال، وهي تضع يدها على رأسه ضاحكة كأنها تبارك عليه، ولكنها لا تلبث أن تستحيل إلى حنان خالص، وإذا هي تميل إليه مترفة فتضع على جبهته قبة حلوة حارة طويلة، ولو أنها تحدثت في تلك اللحظة لأحس شهريار في صوته تهديج العبرات التي تريد أن تندفع من العيون، ولكنها الإرادة القوية تمسكها فيظهر أثر هذا الصراع في الصوت المحتبس والألفاظ التي لا تبين، ولكنها لم تقل شيئًا، وإنما استقام قُدُّها المعتدل وامتدت يدها الرُّخْصة إلى الملك فأنهضته صامته، واستجاب لها الملك صامتًا طيعًا، فمضت به خطوات إلى نشز من الأرض قريب يكسوه العشب فأجلسته وجلست إلى جانبه، وأحاطت عنقه بيدها ثم أمالته في رفق حتى وضعت رأسه على كتفها، وظلت تنظر إليه، وظل ينظر إليها وهما مغرقان في صمت عميق، ثم يسمعها شهريار تتحدث إليه في صوت هادئ وادع وهي تقول له: «ألم يَأْنِ لنا بعدُ أن نهبط من السماء وأن ننزل إلى الأرض فنعيش فيها مع الناس؟»

ولكن شهريار لا يجيبها، وإنما تنحدر من عينيه دمعتان هادئتان تمسحهما شهرزاد في رفق، ثم تنعطف إلى الملك فتقبل جبهته مرة أخرى، ثم تقيمه حتى إذا استوى في مجلسه جعلت تُمرُّ أصابعها في شعره رفيقة به باسمة له مطيلة النظر إليه صامته مع ذلك لا تقول شيئًا، وكأن هذا العطف الصامت الحار قد بعث الحياة والنشاط في قلب الملك وجسمه وفي عقل الملك وإرادته؛ فهو يرفع رأسه إلى شهرزاد ويسألها في صوت كأنه يأتي من بعيد: «ألا تنبئني آخر الأمر: من أنت؟ وماذا تريد؟» قالت وقد استردت نشاطها ومرحها وانحسر عنها العطف والحنان كما ينحسر البحر عن الساحل ساعة الجزر وبدأت مداعبة شموسًا: «من أنا؟! أنا شهرزاد التي أمتعتك بقصصها أعوامًا لأنها كانت خائفة منك، والتي تمتعك بحبها الآن لأنها واثقة بك مطمئنة إليك، وماذا أريد؟! أريد أن أرى مولاي الملك راضيًا سعيدًا ناعم البال رخيَّ العيش مبتسمًا للحياة كما تبتسم له الحياة.» ولم يكد شهريار يسمع هذا الصوت الحلو يحمل إليه هذه الألفاظ الساحرة حتى أطارق إلى الأرض غاضًا بصره متهاكًا، كأنه الطائر القوي، همَّ أن يرتفع في أجواء